عبدالقادر تومي *

# الشيخ محمد الصالح النيفر : وقفات

# مع التنوير الفلسفي والإصلاح الاجتماعي في الجزائر

(الصفحات ١٣٣- ١٤٦)

دعوني في البداية أن أنقل لحضرتكم سلام إخوانكم الجزائريين الذين حمّلوني أمانة إيصال تحاياهم إلى مجلسكم هذا وأمانيهم بنجاح ندوتكم المباركة وهؤلاء هم الأستاذ الفاضل نورالدين كرواز، الدكتورعبد الحليم بوزيد، والدكتورعبد الرزاق قسوم ، والدكتورعمارطالبي، والدكتورمحمد حجازي والشيخ البخاري وهم من العلماء الذين رافقوا الشيخ النيفر أو كانوا طلبة في حلقاته العلمية.

يقول سيد قطب عند حديثه عن الفكرة التي تعيش طويلا: «**عندما نعيش لذواتنا تبدو الحياة قصيرة ضئيلة تبدأ من حيث بدأنا نعي، وتنتهي بانتهاء عمرنا المحدود. أما عندما نعيش لغيرنا، أي عندما نعيش لفكرة فإن الحياة تبدو طويلة ، عميقة، تبدأ من حيث بدأت الإنسانية وتمتد بعد مفارقتنا لوجه هذه الأرض.... »** [1]

إن هذه المقولة القطبية لتنطبق على هذا الرجل «الأمة» الذي ما يزال بآثاره يحيا بيننا، إنه العالم الجليل ، الفيلسوف في مواقفه والمصلح في أعماله ونشاطه المناضل الزيتوني الذي راهن على قوة وروح المجتمع الإسلامي، إنه الشيخ المجاهد محمد الصالح النيفرعليه رحمة الله تعالى ورضوانه و بركاته و أسكنه فسيح جناته، و ألحقه بعباده الصالحين، اللهم آمين يا رب العالمين.

---

* - أستاذ بالمدرسة العليا للأساتذة بوزريعة.

فإن كان قد غادرهذه الدنيا فإن أفكاره ما زالت متلألئة كالنجوم التي تضيء سماءنا والفضل يعود إلى هؤلاء الذين عهدوا على أنفسهم جمع و إثراء ما تركه هذا الكوكب في دنيا الأمة الإسلامية.

في هذه المداخلة أخصصها للحديث عن أعمال الرجل في الجزائرفأسوق لكم بعض الشهادات التي أدلى بها أصحابها عن نوعية نشاطه ومميزات خطابه، ومصطلحاته التي كان يركزعليها في حلقاته العلمية.

وهذه المساهمة المتواضعة تمثل رؤية من زاوية فلسفية عامة ، رصدتُ من خلالها النظرة الفلسفية ، ومنهج التعامل مع قضايا الواقع الجزائري في آثارالشيخ محمد الصالح النيفر، مع انتقاء موضوعات رأيت أن الفلسفة حاضرة فيها ، بشواهدها وقوانينها التي وعاها الشيخ، وقدمها فكرًا ينضح بالنور، وسيرة تُشع بالعبرة .

وكما تحاول أن تقرأ الجوانب الواقعية لفكروفلسفة الشيخ، فإنها تركزعلى الخطاب الإصلاحي الذي كان يعتمد على الأسلوب المنهجي في التعامل مع الأخروهو الأسلوب الذي يتطلب العقلانية في التفكيروالمنطقية في الفهم والواقعية في التصور، وهو ما مارسه الشيخ في مواعظه الدينية في بيته أو المساجد، أو في دروسه التعليمية في المعاهد الثانوية والجامعية، الأمرالذي يجعلنا نميّز في الخطاب الإصلاحي لدى الشيخ النيفرمجموعة من المميزات الأولى تخص مضمون الخطاب والثانية تدورحول منهج الخطاب الإصلاحي عنده.

كما نشيرفي البداية أن معتمدي في هذا البحث هو الكتاب الذي ألفته السيدة أروى عن أبيها وما نشرفي بعض المواقع الالكترونية عنه بالإضافة إلى الروايات التي جمعتُها عنه في الجزائرمن أصدقائه الذين عرفوه وعاشروه عن قرب خاصة السيد نورالدين كرواز[٢] الذي نحيّيه ونتمنى له كل الخير.

### عالم تونسي في بلاد الجزائر

يقول الشاعر:

إذا أنت لم تكرم بأرضك فارتحل  فلا خيرفي أرض مهان كريمها

دخل الجزائر في يوم عيد الفطر من سنة ١٩٦٣م ، وتنقل لنا السيدة أروى في كتابها عن أبيها وهو يتحدث عن خروجه من تونس وتوجهه إلى الجزائر: و«لما داخلتني الشكوك القوية في النوايا ولم أجد السبيل أمامي لتحويل الوجهة أو توجيه النصح النافع تركت البلاد إلى جارتنا الجزائر فوجدت نفسي فيها ....وجدت نفسي بين قوم أرأف بي وأكثر لطفًا عليَّ من أهلي وعشيرتي "[٣] فاستقر في بداية الأمر في مدينة البليدة وأسندت له فيها مهمة إدارة المعهد الإسلامي التابع لوزارة الأوقاف، ثم طلب الانتقال إلى مدينة ابن باديس مدينة قسنطينة، حيث التحقت به زوجته وابنته الصغرى هالة، وفي هذه المدينة مارس مهنة التعليم الثانوي في إحدى ثانويات قسنطينة، ليتحول فيما بعد لتدريس الفلسفة الإسلامية في جامعة المدينة. وفيها أسس مع ثلة من الجزائريين جمعية الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي، وكانت بالنسبة له إطارًا لنشر الوعي الإسلامي في صفوف الشباب الجزائري. هذا الوعي الذي وصفه الشاعر الجزائري محمد العيد آل خليفة قائلا: «كان العالم الواعظ الشيخ محمد الصالح النيفر الإمام بجامع سيدي الكتاني في قسنطينة يقوم بتوعية إسلامية في أوساط الشباب الجزائري بقسنطينة وغيرها من المدن الجزائرية بواسطة الخطب الوعظية والدروس الدينية. وقد شكر الشاعر له هذه المواقف المحمودة فحياه بالأبيات التالية:

حي الإمام (النيفري) وقل له ... بشرى لنا بك من إمام داعي
إن الجزائر بوّأتك مكانة ... مرموقة لندائك السمّاع
لك في مساجدها مجالس دعوة ... كمجالس (البصري) و(الأوزاعي)
تدعو لإحياء التراث شبابها ... وتدله بأدلة الإقناع
لم لا يكون من اقتدى بك صالحًا ... وقد استجاب لـ(صالح) نفّاع
واصلت توعية الشباب فحاد عن ... سبل الضلال ومال للإقلاع
إن الشباب إذا اهتدى بلغ المدى ... من وعيه وأقرّ عين الراعي
وهل ارتقت شتى الشعوب وهل نمت ... إلا على أيدي الشباب الواعي

في البداية نشيرإلى أن جميع الشهادات التي جمعتها عن الشيخ تصب في مصب واحد وهوأن الرجل عالم جليل من طينة العلماء الكبار**كابن باديس ومالك بن نبي ومحمد عبده والإمام الخميني والشيخ الشعراوي والشيخ النعيمي وغيرهم من أبناء أمة الاسلام.**

يعتبرالشيخ النيفرمرجعية قوية في الجزائرخاصة في جهة الشرق الجزائري أقصد باتنة وسطيف وسكيكدة وميلة ..كما يشهد بذلك الأستاذ كرواز.

**١- الشيخ النيفروالتنويرالفلسفي**

إن أهم ما نلمسه في الخطاب الإصلاحي لدي الشيخ نجده يتحدث عن موضوعات دينية وفكرية بنظرة فلسفية ثاقبة ويقدم رؤى فلسفية وفق أرضية إسلامية صلبة ويشرح سنن الكون وفق منطق محكم سليم، ويقرأ الفقه الإسلامي قراءة واعية تستهدف استنهاض الهمم كما يقول الدكتورعبد الحليم بوزيد، وتدفع إلى التأمل والعمل بمقتضيات الشرع الحكيم.

قال في إحدى مقالاته عن الفلسفة مقارنًا بينها وبين الحكمة على **أن الأولى تفكيروبحث أما الثانية فهي تفكيروعمل** مستشهدًا برأي الغزالي حين قال لأحد تلاميذه: «أيها الولد لا تكن من الأعمال مفلسًا ولا من الأحوال خاليًا فلو قرأ رجل مائة مسألة علمية وتعلّمها ولم يعمل بها لا تفيده إلا بالعمل»[٤] مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ﴾[٥].

وبالنسبة إليه فإن العمل أدخل على مدلول الفلسفة فأصبح ما دعا إلى إليه القرآن من حكمة هو فلسفة بما أنها (أي الفلسفة) هي إعمال النظرفي الأصول والعلل مع الاعتماد على البرهان العقلي للانتفاع من قوى الكون[٦] مستندًا إلى الموقف الرشدي الوارد في كتاب *فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال* والقاضي بأن فعل الفلسفة ليس شيئًا أكثرمن النظرفي الموجودات، وأن النظر إما واجب بالشرع أو مندوب إليه، وإن الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[٧].

وأثناء حديثه عن الفلسفة الإسلامية بين دعوة القرآن لاستعمال العقل في تفهم الأشياء، عللها ومعلولاتها، وفي المقابل ينكر على أولئك الذين لا يستعملون عقولهم، وحجته أن هذا الدين بني على التفكير والتدبير[٨] وما أكثر آيات القرآن التي تشير إلى هذا الأمر قال تعالى: ﴿قُل سِيرُوا في الأَرضِ فانظروا كَيفَ بدأ الخلق﴾[٩].

ولقد دعانا ديننا إلى التفَكّر في خلق الله تعالى حيث قال ربنا ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[١٠]

ولقد بين الشيخ النيفر مراتب العقل ومواضع اختصاصه ودوره في التفهم والتفقه لنصوص الشرع وقد ساير موقف الغزالي في توضيح العلاقة الضرورية بين العقل والشرع[١١]

كما عرض الشيخ لمسائل فلسفية فطرح الفكر الإنساني عمومًا والفكر الفلسفي الإسلامي خصوصًا مثل الشك و موضوع السببية مستندًا إلى مواقف فلسفية سابقة كتلك التي استلهمها من الفكر الديكارتي أو ما أفرزته فلسفة أبي حامد الغزالي خاصة من خلال كتابيه *المنقذ من الضلال* و*إحياء علوم الدين*.

الأمر الذي يجعلنا نقول أن الشيخ النيفر قد جمع مشارب الفكر الإنساني بين يديه مستفيدًا مما أنتجه الفكر الإسلامي أو غير الإسلامي[١٢].

وقد جمعت السيدة أروى مختلف الموضوعات الفلسفية التي عالجها الشيخ من زاويته الدينية من ذلك حديثه عن إعجاز القرآن في شأن الوعد والوعيد (ص٣٥٧) وسنن الله في الكون الثابتة (ص٣٦١)

وخاض في الفرق الإسلامية مبينًا حقيقة بعضها والاختلافات فيما بينها[١٣].

وتحدث عن التصوف الإسلامي[١٤] ومظاهره، وعلاقته بموضوعات ترتبط بمفهومه كمذهب وحدة الوجود، وظاهرة الكشف، وقد ساق لنا أبياتًا شعرية من الأدب الصوفي يوضح فيها مقولاته.

وتحدث عن الحضارة الإسلامية وأساسها العقيدي، وخصائصها الفكرية والاجتماعية والعمرانية، وبيّن الشيخ النيفرمسائل مهمة تدورحول محورية الإنسان المسلم في الكون، والقوانين التي تحكم علاقته بربه عقيديًا، وبغيره من البشرفي إطارمن المعاملات الشخصية والاجتماعية.[١٥]وأخذ التشريع في الإسلام ، والفقه ومذاهبه، ومسائل الاجتهاد، مكانًا مهمًا من دروسه التي كان يلقيها على الناس ويعظهم بها.

ومن جهة المحاصنة والممانعة كان الشيخ النيفرللمفسدين بالمرصاد فعالج بعض المذاهب الغربية التي كان لها أثرها على الواقع كموضوع العلمانية وأشار إلى الخداع الذي يمارسه المفسدون تحت عناوين مختلفة (اللائكية، الحداثة، الاشتراكية...)،الذين ينعقون في كل واد بأن الدين خرافة وجود وظلامية، ليصبح الكذب والغدرواستغلال الضعيف والاعتداء على الحقوق إلى غيرها من السلوكيات المرذولة التي تصبح في عرف النفعيين سلوكيات عادية بل مقبولة أخلاقيًا[١٦]مقلبين الحقائق إلى أضدادها محولين الحق باطلًا والباطل حقًا، وبذلك ينتشرالفساد في البلاد بواسطة العباد باستغلال ما توفره وسائل الإعلام لهم من أبواق دعائية.

لكن كان للشيخ النيفرإدراك تام لنوايا هؤلاء فكان لهم بالمرصاد مستخدمًا الحكمة والبيان في كشف ألاعيبهم وأهدافهم ، وموضحًا لسبل الإصلاح التي لا تخرج عن محورالعودة إلى كتاب الله الذي يصلح النفوس الفاسدة وييسرالهداية لمن ظل الطريق.

وتطرق أيضًا في دروسه إلى جميع الشرورالتي تتربص بالإنسان خاصة تلك التي جلبتها ريح الفلسفة المادية وجندت لها جموع المستشرقين الذين قاموا بأدوار كبرى في تغييرعقلية المسلمين بعد خداعهم بموضوعات وأساليب جديدة.[١٧]

أما في المجال الإصلاحي فإننا نسجل جوانب مهمة في التميز وقد قسمنا ذلك إلى قسمين اثنين.

**أ- مميزات الخطاب الإصلاحي من جهة المضمون.**

**١- التركيزعلى عنصرالشباب:**

لقد كان التركيزعلى الشباب لما لهذا الأخيرمن دورفي حمل راية الدعوة الإسلامية، وكان يوجه خطبه لهم أي الشباب علمًا منه أن الشباب يتفاعل مع كل جديد، وهم أكثرالناس تأثرًا، وأسرعهم استجابة، وأشدهم تفاعلًا ولقد رَبّى النبي صلى الله عليه وسلم جيلًا مؤمنًا و ملتزمًا بمفاهيم وقيم الإسلام، وكان الغالب في هذا الجيل شريحة الشباب. رَباهم على التربية المتوازنة القائمة على الموازنة بين العاطفة والعقل، الروح والجسد، العلم والعمل. وهذا التوازن الدقيق هو المنهج السليم في التربية.

وكان الشيخ رحمه الله يدعوفي كل مناسبة إلى واجب التقرب المبين من الشباب وهم رجال المستقبل في إطارالتوعية المباركة ، وللتكوين السديد وبلوغ درجة التأهيل لخدمة العباد والبلاد في إطارالمصلحة العليا للإسلام والمسلمين وعلى أساس من التقوى والتمسك في طريق التنمية الشاملة[١٨].

ويشهد الدكتورعبد الحليم بوزيد أنه كان ينصح الشباب بالابتعاد عن الفتنة كل ما أمكن مركزًا على العلم والتربية المسجدية في بناء الفرد المسلم.

ولقد تعامل الشيخ برفق مع الشباب، مما زاد من التفافهم حوله، خاصة في قسنطينة وهو ينصحهم على الخيرالعميم لوجهه تعالى ولفائدة الدين الحنيف. وقد شجع مجموعة من القسنطينيين الأفاضل بأنوارمن الدين الحنيف لتأسيس جمعية الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي، وقد نجح بذلك بفضل الخصائص وطريقة التعامل مع الشباب التي يتميزبها الشيخ، وقد مدح القرآن الكريم تعامل النبي صلى الله عليه وسلم، مع الناس باللين والرفق، يقول تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْلَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِفَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[١٩] وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحثّ على الرفق، فقد روي عنه صلى الله عليه

وسلم، قوله: «إن الرفق لم يوضع على شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه» [٢٠]

من خلال تعامل الشيخ الحكيم مع الشباب[٢١] استطاع أن يربي جيلًا مؤمنًا وملتزمًا بتعاليم وقيم الإسلام، وكان لهذه الطليعة المؤمنة ـ فيما بعد ـ دورمهم ومؤثر في التبليغ للإسلام، ونشرمفاهيمه وقيمه ومثله وهاهي جمعية الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي بقسنطينة تعيش السنة ٤٦ من عمرها وكل ذلك بفضل ذلك التخطيط الحكيم من الشيخ النيفررحمه الله .

**٢- الاهتمام بالواقع التربوي**

لما أدرك الشيخ النيفرما للتربية من دور، ركز اهتمامه عليها وكأنها المهمة الأولى التي يجب الاعتناء بها . أثناء حديثه عن طريقة الإسلام في التربية كان يركز على مكارم الأخلاق وقضية العمل بها.

لقد أدرك الشيخ النيفرأن التربية الإسلامية تحرص على تفجيرمنابع الخيرعند الإنسان وذلك بكثرة طرق الخيرمن الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وطلب العلم والإحسان وغيرذلك، بحيث أن كل طاقة موجودة عند الإنسان يجد لها مصرفًا يصرفها فيه، ويشعرأنه يخدم الإسلام من خلال تصريف هذه الطاقة، ولا شك أننا نجد كثيرًا من الناس وخاصة الشباب يتمتعون بطاقات كبيرة جدًا، بطاقات جسمية، وعقلية وغيرها. فحين لا يوجد من يستثمرهذه الطاقات تجدها تتسرب وتذهب إلى مجالات وجهات ليست محمودة؛ فتضيع مثلًا في الركض وراء الكرة ركضًا مبالغًا فيه، أو تضيع في الركض وراء الشهوات و إشباع الغرائز، أو تضيع وراء قضاء الأوقات مع الشُلل والأصدقاء المنحرفين، أو تضيع بأي صورة من الصور، إن لم تجد المصرف الصحيح الذي تصرف فيه وتوجّه إليه، لكن الإسلام والتربية الإسلامية الصحيحة أوجدت المجالات التي يمكن استثمارهذه الطاقات من خلالها، كما أولى الشيخ النيفراللغة العربية اهتمامًا منقطع النظير، فقد عرف رحمه الله بشدة حبه للغة العربية، واتضح ذلك في أصالة الخطاب الذي يلقيه، ولما أيقن أن اللغة هي أساس الهوية، وعنصرالانتماء لهذه الأمة، فكانت

للشيخ مقترحات فاعلة للنهوض بالتربية والتعليم في المؤسسات التربوية الجزائرية، وأرجع أسباب ضعف مستوى التعليم إلى الاضطراب في تعليم العربية الذي تورثه الجزائريون من الإدارة الفرنسية[٢٢]. وقد كان يرى مثل زميله الذي التقى في مدينة البليدة **الشيخ البشير الإبراهيمي** أن لغة الأمة هي ترجمان أفكارها وخزانة أسرارها، وأن الأمة الجزائرية ترى في اللغة العربية زيادة على ذلك القدر المشترك، أنها حافظة دينها، ومصححة عقائدها، ومدونة أحكامها، وأنها صلة بينها وبين ربها[٢٣].

ولا تعتبر اللغة العربية في رأي الإبراهيمي لغة جامدة غير قادرة على استيعاب ما وصلت إليه مختلف الحضارات، فهو يرى فيها قالبًا يتسع لأكثر من ذلك، كيف لا، وهي مَنْ حوت تاريخ وحضارة الإنسانية يوم كانت اللغات الأخرى في حالة جمود ونسيان، ويؤكد ذلك بقوله: «...وقد كانت هذه اللغة ترجمانًا صادقًا لكثير من الحضارات المتعاقبة التي شادها العرب بجزيرتهم، وفي أوضاع هذه اللغة إلى الآن من آثار تلك الحضارات بقايا وعليها من رونقها سمات، وفي هذه اللغة من المزايا التي يعزّ نظيرها في لغات البشر: الاتساع في التعبير عن الوجدانيات، **والوجدان أساس الحضارات والعلوم كلها**[٢٤].

ولما حاول الفرنسي إحلال البربرية مكان اللغة العربية وذلك تفريقًا للأمة الجزائرية وسعيًا منه لدس الشقاق بين أبناء الوطن الواحد، دافع الإبراهيمي على ترسيخ عروبة الجزائر ماضيًا وحاضرًا، في الكثير من المحافل أينما حل، وحيثما ارتحل فيقول: «اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة، بل هي في دارها، وبين حماتها ، وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدة الأواخي مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل... ».[٢٥]

### الدعوة إلى الوحدة

يقدم الدكتور بوزيد شهادته هذه فيشير إلى أن اغلب مضامين حلقات الشيخ النيفر لا تخلو من الدعوة إلى الوحدة ونبذ الخلافات، وكان يكره

السياسة التفريقية التي تقول هذا عربي وهذا أمازيغي، وكان يدعوإلى إزالة الحدود الاستعمارية من أذهاننا لأن الإسلام جامع للمسلمين ، وفي سبيل السعي للوحدة الإسلامية كما هي في القرآن **كان يدعوإلى انصهارالأمة في المنطلقات والمشاعروإلغاء الحواجزالمذهبية ويحارب النزعة المذهبية من الأذهان وهي التي كان يوظفها الاستعمار لتجسيد الفرقة بين أبناء الأمة.**

### مميزات الخطاب من جهة المنهج

يتميزخطاب الشيخ محمد الصالح النيفربما يلي:

**١- هو خطاب نصحوي**

كان رحمه الله تعالى في تاريخ ما، بنادي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تقديم محاضرة توجيهية للشباب القسنطيني فقيل له « يا شيخ إن فلانًا يدعوكم لفائدة ما، فأجاب الشيخ الكريم، طيب الله مثواه» وصيتي إليكم أن لانخرجوا عن النظام العام ولاعن الإطارالذي أنتم فيه، احذروا، احذروا والله معكم ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

وكان رحمه الله تعالى لايمكن أن يتعدى القانون المعمول به من جهة ولا الخروج عن الشريعة الإسلامية من جهة أخرى فقيل له آنذاك :هيا فلندع ولندفع أموال زكاة الفطرإلى فلسطين فأجاب « لالا! زكاة الفطرللتيسيرعلى فقراء البلد مباشرة قبل يوم العيد بقليل، لا يمكن إخراجها بعيدًا عن أهلها » و إنها لجرأة ملموسة خدمة للدين الحنيف ودفاعًا عن فقراء الجماعة التي أسست من أجلها[٢٦]

فالدعوة إلى عقيدة الإسلام وشريعته وقيمه الأخلاقية تأسست على الجدال الحسن والكلمة الطيبة، والحوارالمقنع، وهذا ما يجعل الثقافة الإسلامية عالمية، ليس لأنها عامة فقط بل لأنها لاتلغي الثقافات الأخرى. إنها كما قال أحد الكتاب «تلك الثقافة التي تكون في عمقها إنسانية الطابع والأبعاد، وتأخذ في اعتبارها أن ثمة تعدادًا وتبيانًا في الثقافات، ونسبية في المفاهيم. ومن ثم فهي

تسعى إلى مد جسورالتواصل والتفاهم مع الثقافات الأخرى، ولا تسعى إلى أن تكون نقيضًا لها أو إلغاءها"[٢٧] اعترافًا بواقع الخلاف الموجود على الأرض، والذي أقرّه القرآن الكريم من خلال قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [٢٨].

**٢- خطاب نقدي**

مثل ماكان ناقدًا لبرامج التعليم الزيتوني ومناهج تدريسه التي يراها غيرموافقة لمتطلبات الواقع ولا لتطلعات الشباب التونسي[٢٩] لم يسكت أيضًا على الواقع التربوي في الجزائر ولا على واقع المرأة كما كان، ولم يسكت عن المنكر والفواحش التي انتشرت في المجتمع الإسلامي آنذاك.

**٣- خطاب فعال**

لقد كان هم الشيخ النيفرتكوين شباب مسلم راسخ العقيدة غيرمسلوب الإرادة .

إن لم تتوفرالإرادة الحقيقية والتي تتجلى مظاهرها من خلال الحركة والفعل لن يكون هناك تغييرونصر، و واقع الأمة يعكس حجم الإحباط وكثرة الشعارات وقلة الأفعال ، ناهيك عن أبواق الظالمين ومدى تأثرالمسلمين بها من خلال قلة الوعي تارة ، وتارة غشاوة البصروالبصيرة بحب الدنيا وحطامها و إيثارها على الآخرة، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [٣٠]. فحقيقة النصرتكمن في الانتصارللعقيدة والمنهج الإسلامي .

**٤- خطاب واقعي**

المقصود بالواقعية في الخطاب أن العلامة الشيخ النيفر كان ينطلق من الواقع ويخاطب الناس وفق فقه الواقع. والدعوة الإصلاحية التي تبناها الشيخ النيفرفي الجزائرترتكزعلى علم بحال الجزائريين، وآمالهم وآلامهم، وتطلعاتهم نحو صباح جديد، تشرق فيه شمس الحرية عليهم، وكان هذا لب مبدأ جمعية العلماء

المسلمين، وفي ذلك يقول الإبراهيمي: «... مبدأ جمعية العلماء يرمي إلى غاية جليلة فالمبدأ هو العلم والغاية هي تحرير الشعب الجزائري، والتحرير في نظرها قسمان: تحرير العقول والأرواح وتحرير الأبدان والأوطان، والأول أصل الثاني، فإذا لم تتحرر العقول والأرواح من الأوهام في الدين وفي الدنيا، كان تحرير الأبدان من العبودية، والأوطان من الاحتلال متعذرًا أو متعسرًا، حتى إذا تم منه شيء اليوم، ضاع غدًا لأنّه بناء على غير أساس، والمتوهم ليس له أمل، فلا يُرجى منه عمل، لذلك بدأت جمعية العلماء من أول يوم نشأتها بتحرير العقول والأرواح، تمهيدًا للتحرير النهائي..."[٣١]. ويشهد الدكتور عبد الحليم بوزيد أن الشيخ النيفر كان يقول لنا «الاستعمار أفرغنا من الوعي وملأنا بالخرافات»، لذلك كان يوصي بالتعبد عن وعي.

وفي حديثه عن واقع المرأة يشير إلى الخط المعوجّ الذي رسم للمرأة فقتلوا فيها العاطفة والأنوثة وجعلوها كرة تتلقفها الشهوات[٣٢] ووضعت كل مواهبها في سوق المزاد للناكرين والخادعين متسائلا أين هذا مما أعدته لها قوانين الإسلام وأحكامه من عزة وطمأنينة على كامل أدوار حياتها؟!

ويشهد له الدكتور عمّار طالبي بأنه كان يركز كثيرًا على تربية البنت المسلمة نظرًا لأهمية المرأة المسلمة ودورها في المجتمع كما قدم لنا الدكتور طالبي شهادته الخاصة بمنهج الرجل .

## الخاتمة

في ختام هذه المداخلة لا يسعنا سوى أن نهيب بالجهود التي تبذلها عائلة المرحوم في سبيل إحياء أفكار المرحوم والتذكير بخصاله الكريمة، فضلا عن جمع مقالاته ودروسه المكتوبة والمسموعة. وأخيرًا نجدد الترحم على مجدد الصحوة الإسلامية في الجزائر وتونس، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا الجنة مع هؤلاء العلماء الأخيار، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

## الهوامش:

١ - سيد قطب- *أفراح الروح* ، مجموعة نثرية بعثها لأخته حميدة لما كان في السجن.
٢- شخصية جليلة من أهل العلم بقسنطينة كان من رفقاء الشيخ وتعلم عنه الكثيرمن المسائل ، أسس مع الشيخ محمد الصالح النيفرمشروع جمعية الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي بقسنطينة تحت إشراف المرحوم السيد حميدة باستارزي ثم تحولت إلى جمعية النورللمحافظة على القرآن الكريم قسنطينة .ولا زالت تنشط إلى الآن .
٣ - أروى النيفر– *الشيخ محمد الصالح النيفرحياته وآثاره* - دارلبنان للطباعة والنشرالطبعة الأولى- ص ٩٥
٤- أروى النيفر–*الشيخ محمد الصالح النيفرحياته وآثاره* - دارلبنان للطباعة والنشرالطبعة الأولى- ص ٤١٩
٥- سورة الكهف- الاية ١١٠
٦ - أروى النيفر– *الشيخ محمد الصالح النيفرحياته وآثاره* - دارلبنان للطباعة والنشرالطبعة الأولى- ص٤٢٢
٧ - سورة الحشر–الآية ٢
٨ - أروى النيفر– *الشيخ محمد الصالح النيفرحياته وآثاره* - دارلبنان للطباعة والنشرالطبعة الأولى- ص٤٢١
٩ - سورة العنكبوت –الآية ٢٠
١٠ - سورة ال عمران –الآيتان ١٩٠- ١٩١
١١ - أروى النيفر– *الشيخ محمد الصالح النيفرحياته وآثاره* - دارلبنان للطباعة والنشرالطبعة الأولى- ص٤٢٤
١٢ - نجده يستند في أرائه إلى اغلب الفلاسفة الغربيين كهيوم، مالبرانش، بركلي ، لوك...
١٣ - أروى النيفر– *الشيخ محمد الصالح النيفرحياته وآثاره* - دارلبنان للطباعة والنشرالطبعة الأولى- ص٣٩٩
١٤ - أروى النيفر–*الشيخ محمد الصالح النيفرحياته وآثاره* - دارلبنان للطباعة والنشرالطبعة الأولى- ص٤٠٤
١٥ - أروى النيفر– *الشيخ محمد الصالح النيفرحياته وآثاره* - دارلبنان للطباعة والنشرالطبعة الأولى- ص٣٦٦-٣٧٠
١٦ - اعتمادا على الرؤية الميكيافيلية –الغاية تبررالوسيلة
١٧ - أروى النيفر– *الشيخ محمد الصالح النيفرحياته وآثاره* - دارلبنان للطباعة والنشرالطبعة الأولى- ص٢٠٢
١٨ - نقلا عن محاضرة ألقيت عام ٢٠١١ في إطارندوة الشيخ محمد الصالح النيفرمن إعداد الأستاذ نور الدين كروازوتوقيع محمد الأخضربن دالي حسين حفظهم الله.
١٩ - سورة آل عمران: الآيه١٥٩.
٢٠ - *ميزان الحكمة* ، محمد الري شهري، دارالحديث الثقافية، بيروت .لبنان، طبع عام ١٤١٩هـ ج٣، ص١١٠٢، رقم ٧٣٥٤.

٢١ - لقد استطاع أن يعمل على كسب الشباب، وتوظيف طاقاتهم الخلاقة فيما يخدم المجتمع والأمة، واستثمارمواهبهم الإبداعية في التطويروالتقدم خاصة عندما نعلم بما يواجهه شباب اليوم من حملات موجهة ومخططة من قبل وسائل الإعلام الفاسد، وشبكات الفساد والإفساد، ومافيا المسكرات والمخدرات.. وكلها تهدف إلى إفساد الشباب المسلم، و إبعاده عن دينه وقيمه وأخلاقه، ونشرالتحلل الأخلاقي، والميوعة السلوكية لدى جيل الشباب.

٢٢ - أروى النيفر– *الشيخ محمد الصالح النيفرحياته آثاره*- دارلبنان للطباعة والنشرالطبعة الأولى- ص٢٨٧

٢٣ - *عيون البصائر*: ٣١٠.

٢٤ - *الآثار*: ١/ ٣٧٤

٢٥ - *عيون البصائر*: ص ٢٢١.

٢٦ - نقلا عن محاضرة ألقيت عام ٢٠١١ في إطارندوة الشيخ محمد الصالح النيفرمن إعداد الأستاذ نور الدين دروازوتوقيع محمد الأخضربن دالي حسين حفظهم الله.

٢٧ - أسامة أبو رشيد،"الثقافة العالمية الأخرى"، مجلة قضايا دولية، العدد٣٤٠،تموز١٩٩٦ ص ٢٩

٢٨ - سورة المائدة، الآية ٤٨

٢٩ - اروى النيفر– *الشيخ محمد الصالح النيفرحياته وآثاره*- دارلبنان للطباعة والنشرالطبعة الأولى- ص٣٥

٣٠ - سورة محمد: الاية ٧

٣١ - *آثارالبشيرالإبراهيمي*: جمع أحمد طالب الإبراهيمي، دارالغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ٤/ ٣٤٤.

٣٢ - اروى النيفر– *الشيخ محمد الصالح النيفرحياته وآثاره*- دارلبنان للطباعة والنشرالطبعة الأولى- ص٢٩٧